

الفصل الثالث

خطوات في طريق الهجرة

- أولاً : الإيمان .
- ثانياً: الأخلاق .
- ثالثاً: التوبة .
- رابعاً : التقوى .
- خامساً: الصبر .
- سادساً: التوكل والثقة بالله .
- سابعاً: الدعاء .

obeikandi.com

أولاً: الإيمان :

إن الإيمان هو أول خطوة في طريق الهجرة إلى الله تعالى، وليست هناك هجرة إليه تعالى بدون إيمان، فالإيمان بالله تعالى يعدُّ المعرفة الحقيقية به ﷻ كما يجب أن تكون:

ودعونا الآن نتجول في خديقة الإيمان ونرى كيف يمكن تحقيق هذه الهجرة. إن الإيمان مهم؛ لأنه يحدد مضمير الإنسان إلى أي الدارين يصير، أيكون في دار النعيم، أم دار الجحيم هي مأواه .. وهل يسير على طريق الرشاد، أم على طريق الضلال خطاه، إن الحياة دار امتحان واختبار، كما قال الله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْتَلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (الملك: ٢).

لذلك يجب علينا أن نركز عنايتنا على أساس الدين، وهو العقيدة الصحيحة؛ لأنه من العمل الصالح، ولهذا كانت السور القرآنية المكية تدور في مجملها حول ترسيخ العقيدة، وبعد أن اكتمل فهم العقيدة فهما صحيحًا، جاءت السور القرآنية المدنية، والتي تدور في معظمها حول الشرائع والعبادات. ولتعلم أخي الحبيب أن الذي يُمَيِّزُك بين الأمم جميعها هو العقيدة؛ ولهذا سابدأ معك، والله أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، هذه الشهادة العالية الثمينة الغالية التي تنجيك وتخلصك من الظلمات إلى النور، ومن الجحيم إلى النعيم، ومن الأغلال إلى الأرائك، ومن الزقوم والسموم إلى ملاعبة الحور.

الإيمان بالله تعالى: هو الاعتقاد الجازم بأن الله ﷻ رب كل شيء ومليكه وخالقه، وأنه ﷻ من يستحق وحده أن يتفرد بالعبادة: من صلاة، وصيام، ودعاء، ورجاء، وخوف، وذل، وخضوع، وأنه ﷻ المتصف بصفات الكمال كلها، المنزه عن كل نقص وعيب.

أنواع التوحيد: التوحيد ثلاثة أنواع، ولا يصح إيمان العبد إلا بها، وهى:

١- توحيد الربوبية: وهو الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى رب كل شيء، ولا رب غيره. تقول العرب: أنا رب الدار، أي: القائم بشئونها، والله تعالى هو رب العالمين، أي: القائم بشئون خلقه: «من خلق، ورزق، وإحياء، وإماتة».

٢- توحيد الألوهية: وهو الاعتقاد الجازم بأن الله ﷻ هو الإله الحق، ولا إله غيره، وإفراده ﷻ بالعبادة، وأن الله تعالى هو الذي يُخْلِص له المؤمن في تعبده، وخوفه، ورجائه، وطاعته، وتوكله، واحتكامه، ودعائه، وهذا هو التوحيد الفارق بين الموحدين والمشركين، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة، فمن لم يؤمن به كان من المشركين. وهذا هو التوحيد الذي جاء به الرسل من عند الله ﷻ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

يقر المشركون بتوحيد الربوبية، ولكنهم ينكرون توحيد الألوهية، فأكثر العباد لا ينكرون الخالق، وربوبيته على الخلق، ولكن كفرهم يأتي من عبادتهم لغير الله ﷻ، حيث يكون دعاؤهم، واستعانتهم، واحتكامهم، وطاعتهم لغير الله ﷻ: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (الزخرف: ٨٧).

أي: هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعاً، وحده لا شريك له في ذلك، ومع هذا يعبدون من لا يملك شيئاً، ولا يقدر على شيء، فهم في ذلك في غاية الجهل، وسفاهة العقل.

٣- توحيد الأسماء والصفات: وهو الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى هو المتصف بجميع صفات الكمال، وهو المنزه عن جميع صفات النقص من غير تشبيه، فمن شبه الله بخلقه كفر ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى: ١١)، ومن غير تعطيل؛ أي: جحود، أو نفي لما وصف الله تعالى به نفسه، أو بما وصفه رسوله ﷺ، فمن فعل ذلك فقد كفر: ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١١)؛ فلا يجوز السؤال عن كيفية الصفات؛ لأن الله ﷻ لا يُسأل عن كنهه - جل في علاه - فكذلك صفاته لا يصح السؤال عن كفيته،

وعندما سُئِلَ الإمام مالك رحمه الله عن قوله سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه: ٥) قال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»^(١) فالله ﷻ له سمع وبصر، وكلام ونزول، واستواء يليق بجلاله وذاته العلية ... ﷻ.

وضرب العلماء لذلك مثلاً - والله المثل الأعلى - : النملة لها عين ولنا عين، فلا يلزم أن تكون أعيننا مثل عين النملة؛ لأن النملة لها عين تليق بها، ونحن لنا عين تليق بنا .

والصفات نوعان:

ذاتية: وهي التي لا تنفك عن الله ﷻ مثل: العلم، والحياة، والقدرة والسمع.

صفات العمل: وهي ما تعلق بمشيئة الله تعالى وقدرته، مثل: النزول، والسخط، والرضى .

إذن يجب على المسلم أن يعايش توحيد الأسماء والصفات؛ لأنه من أهم الأقسام التي يحتاجها المؤمن أثناء رحلته إلى الله ﷻ.

وبعد أن تعرفنا معاً على التوحيد وأقسامه التي يجب على المؤمن أن يعتقدها، نتقل إلى دلائل وجود الله ﷻ.

١- الفطرة: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم: ٣٠)، وقال رسول الله ﷺ: « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يَهُودِيًّا ، وَيُنَصْرَانِيَّةً ، أَوْ يُمَجْسَانِيَّةً »^(٢) وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٢).

(١) أصول الإيمان (١ / ٤٣) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجنائز ، باب: إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ رقم ١٣٥٨ .

٢- دقة الخلق (الصنع): تدل على عظمة الخالق (الصانع)، وفي كتاب الله تعالى دعوة إلى النظر والتفكر في بدائع صنع الله سبحانه: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢١) ، ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠)، ﴿ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِمَهُ ﴾ (الأنعام: ٩٩)، ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نَسَقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ (النحل: ٦٦).

ووضع العلماء فروضاً ثلاثاً ، وناقشوها :

أ - أن الكون وُجِدَ مصادفة ، ورد العلماء عليها : بأن ما جرى مصادفة لا يتكرر حدوثة بانتظام، وهذا ما لا يحدث في الكون؛ مما يدل على أن وراء هذا الكون خالقاً حكيماً .

ب- أن تكون نشأة هذا الكون من العدم، وفاقد الشيء لا يعطيه ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (الطور: ٣٥) أي: هل وجدوا من غير خالق؟ أم خلقوا أنفسهم بأنفسهم، فلا يحتاجون إلى أحد يخلقهم، وبالطبع هذا يستحيل .

ج- أن يكون لهذا الكون خالق حكيم، وهذا ما قال به العلماء من قبل؛ ولذلك يقول سقراط: "أي الصنّاع أولى بالإعجاب، الذي خلق صوراً بلا عقل ولا حراك، أم الذي يبدع كائنات ذات عقل وحياة؟!"

٣- انخلاع القلب إلى الله ﷻ عند الشدائد: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِيمَ بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُخِجْتَنَا مِنْ هَاهُنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (يونس: ٢٢). وعندما سُئِلَ أحد العارفين عن دليل وجود الله، قال: "أرأيت لو كنت في صحراء فسقطت في بئر، ولا تجد من ينجدك فماذا تقول؟ قال: أقول يا الله .. يا الله، قال:

هذا دليل وجوده؛ ولكنها مغالطة الملاحظة لفطرتهم، وادعائهم للعقلانية ولا عقل.

٤- التقدم في مجالات المعرفة والعلوم : حيث أدركنا أن هنالك عوالم كثيرة لا علم لنا بها، وهي موجودة ، مثل: الجراثيم، والبكتريا؛ ولكن قصورنا العلمي جعلنا في جهالة عن معرفتها قرونًا طويلا، ومن أدق الأمثلة على هذا: المغناطيس، والكهرباء حيث ننتفع بها، ولا نعلم شيئا عن كنهها، إذن فإن معرفة حقائق الأشياء لا يفيدنا شيئا، ويكفي أن نعرف من خواصها ما يعود بالفائدة علينا، فما بالك بذات الله ﷻ - والله المثل الأعلى - فهي أكبر من أن يحيط بها إنسان، وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الحاقة: ٣٨-٣٩) .

٥- صدق المخبر يدل على صدق الخبر: فالذي أخبرنا عن الله ﷻ رُسل وأنبياء كرام، وهم صفوة الخلق، وأطهرهم قلوبًا وأزكاهم نفوسًا، وأحسنهم خلقًا؛ لذا عندما صدع الرسول الكريم بدعوته، ووقف على الصفا، ونادى القبائل بأسمائها، فلما اجتمعوا قال: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُتِّمُ مُصَدِّقِي؟ قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، قَالَ أَبُو هَبٍ: تَبَّا لَكَ مَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا، ثُمَّ قَامَ فَنَزَلَتْ تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ، وَقَدْ تَبَّ هَكَذَا قَرَأَهَا الْأَعْمَشُ يَوْمَئِذٍ»^(١). فهم أمام الجبل لا يرون، ولا يعرفون ما خلفه، ولكن ثقتهم بمن أخبرهم، وصدقه، وأمانته؛ تلزمهم أن يؤمنوا بالخبر ويصدقوا به، وكذا تواتر الخبر عبر أجيال مضت، ولم يعرف عن أمة الإلحاد منذ بدء الخليقة، وإنما كانت نشأة الإلحاد في أوروبا؛ بسبب موقف الكنيسة من العلماء التجريبيين والباحثين الذين اكتشفوا حقائق تخالف ما تبنته الكنيسة من "أكاذيب" فرضتها على الناس قسرًا يوم كان للكنيسة سلطان. فصار

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن الكريم ، باب قوله " فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا" ، رقم (٤٩٧١).

الناس بين أمرين كلاهما شر، إما أن يؤمنوا بالكنيسة وخرافاتهما، وإما أن يؤمنوا بالعلم ويكفروا بالكنيسة، والتي كانت تمثل الدين كذباً، فلما زال سلطان الكنيسة، وجاءت الثورة الصناعية، عمّت الفوضى في عقائد الناس، بل وكان شعار المتظاهرين آنذاك " لِيُسْتَقَّ آخِر دَوُقٍ بِأَمْعَاءِ آخِر قِيسِيسٍ"، فالكنيسة كانت سيفاً ظالماً بيد الحكام على رقاب الناس، فجمعت بين السوءتين: الظلم والجهل، فكانت نشأة الإلحاد .

٦- المادة ليست هي الشيء الملموس في بعض أنواعها. إنما هي غيب مثل: الجاذبية، والكهرباء، وكذلك مكونات النفس الإنسانية من روح، وعقل، وضمير، وذاكرة، ويقول العلماء أيضاً "إن الكامل المطلق: هو الله ﷻ يُعْرَفُ وَلَا يَحَاطُ بِهِ" فتوقف الإقرار على الرؤية، والإحاطة ضلال، فالصغير لا يحيط بالكبير، والناقص لا يحيط بالكامل، والمحدود لا يحيط باللامتناهي، وهكذا فلا يمكن للإنسان أن يحيط بالله؛ لقصور الإنسان، وكمال الله ﷻ؛ ولذا قيل: العجز عن إدراك الذات إدراك .

وعندما سأل موسى ﷺ ربه رؤيته ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ۗ قَالَ لَنْ تَرَنِي ۚ ﴾ (الأعراف: ١٤٣). وفيه إشارة إلى أن الخالق لم يحجب نفسه عن المخلوق، بل إن نقص المخلوق هو الذي حجبه عن الرؤية حيث لم يقل - جل شأنه - : لا تراني. ثم تأمل في تمام الآية: ﴿ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي ۗ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۗ ﴾ (الأعراف: ١٤٣) فالجبل في تركيبته أقوى من الإنسان وأصلب؛ فإذا قوي على الرؤية فسوف تراني، فإذا بالجبل يتهاوى ، وموسى أكرم على الله تعالى من الجبل - فكيف يتجلى للجبل وهو جماد ولا يتجلى لنبي كريم. ولكن يوم القيامة تكون طبيعة العباد وخلقهم على سمت وبناء جديد؛ لذا قال تعالى: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (القيامة: ٢٢-٢٣). وجاء في الحديث الشريف، عن جرير بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُصَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»^(١).

وننتقل إلى جانب آخر مهم، وهو حق الله تعالى على عباده "التوحيد" الخالص له ﷻ وحده : وذلك بأن تعتقد :

أن الله وحده هو الخالق، وأن كل ما عداه فهو مخلوق: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الزمر: ٦٢)، وأن كل ما عداه عبدٌ له ﷻ: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (مريم: ٩٣).

وذلك بأن تعتقد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولو كان وراء الكون أكثر من خالق لاضطرب نظامه، واختل ميزانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

ويقول أحد العلماء : لو قُدِّرَ تعدد الإله؛ لانفرد كل منهم بما خلق، فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق غاية الكمال: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ (الملك: ٣)، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر، فيعلو بعضهم على بعض، ﴿مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩١).

إن أفراد الله ﷻ وحده بالعبادة (الصلاة، والصوم، والذبح، والحج، والدعاء، والسؤال): ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك له. وَيَذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوْلُ السُّلَمِينَ ﴿٣٣﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣). أو كما روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر، رقم

بِسْمِي لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِسْمِي قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِسْمِي لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِسْمِي قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» (١).

ليس هناك حجاب بين الله تعالى وبين خلقه، فعلاقة العبد بالله ﷻ علاقة مباشرة، فليس أقرب للعبد من الله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ١٨٦).

وجوب إخلاص المحبة لله ﷻ وحده: وذلك بأن تقدم محبة الله تعالى على كل ماعداه، وأن تضحي بكل حب في سبيل الله تعالى إذا تعارض بينه وبين ما يقضيه حبك لله ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤).

وجوب التلقي عن الله وحده في الشرائع القانونية بالمنهج الذي بلغنا عن رسول الله صلوات الله عليه: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧).

وجوب تعظيم الله ﷻ والحياء منه، ومخافته، ورجائه، وكثرة ذكره، وحسن الظن به، والتمسك بعروته الوثقى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٥).

ثانياً: الإخلاص:

إن المهاجر قبل أن يبدأ هجرته لا بد له أولاً من أن يحقق نيته، ومقصده من هذه الهجرة، أهي لله خالصة ذات أهداف عالية، وغايات سامية؟ أم تكون الهجرة هجرة زائفة إلى دنيا قدرة وريح نتنة، ولهذا كانت الخطوة الأولى في طريق المهاجر أن يحدد هدفه من نقطة البداية؛ ولهذا بدأنا هذه الخطوات

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع، باب: منه رقم ٢٥١٦.

المباركة بخطوة الإخلاص، فقال بعض السلف: "ما من فعلة وإن صغرت إلا ونشرها ديوانان: لم؟، وكيف؟ أي: لم فعلت هذا الفعل؟ وهل أردت به وجه الله ﷻ وحده أم أشركت معه غيره؟ وكيف فعلت هذا الفعل؟ وهل هو مطابق لسنة النبي ﷺ؟ أم هو من البدع المحدثات؟ وكل بدعة ضلالة: فيشترط لقبول العمل شرطان: الشرط الأول: الإخلاص، والشرط الثاني: متابعة سنة النبي ﷺ وذلك على هذين الشرطين قوله ﷻ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠)؛ ولهذا فالعمل الصالح هو العمل الموافق لسنة النبي ﷺ وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أي: يكون هذا العمل صادرًا عن إخلاص، وقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (النساء: ١٢٥)، فإسلام الوجه لله تعالى: هو إخلاص القصد والنية، والإحسان، وهو متابعة سنة النبي ﷺ، وقال ﷻ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢)، ولم يقل الله ﷻ: أكثر عملاً، بل قال: "أحسن عملاً" فالامتحان يكون في حسن العمل، وليس في كثرته، قال "الفضيل بن عياض" في شروط قبول العمل، قال "أخلصه وأصوبه، قيل: وما ذاك؟ قال: العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا، والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة"^(١)، فهذان شرطان لقبول أي عمل فينبغي للعبد أن يوفر هذين الشرطين (الإخلاص، والمتابعة).

شرط الإخلاص:

قيل في تعريف الإخلاص: هو أفراد الله ﷻ بالقصد في العبادة، أي: أن يعمل العبد العمل لا يريد به إلا وجه الله ﷻ، وقيل: هو تجريد قصد التقرب إلى الله ﷻ من جميع الشوائب، وقيل: هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، وهذه معاني الإخلاص، وقد يظن ظان أن الإخلاص أمر يسير يتيسر

(١) حلية الأولياء (٣/٣٩٤).

لكل عبد في كل حال، في حين أن العلماء يقولون: (تخليص النيّات على العمال أشق عليهم من جميع الأعمال) ، وقول العلماء في الإخلاص كثير: قال يعقوب: "المخلص من يكتّم حسناته كما يكتّم سيئاته"، قال السوسى: "الإخلاص فُقِدَ رؤية الإخلاص، فإن مَنْ شاهد في إخلاصه الإخلاص فُقِدَ احتاج إخلاصه إلى إخلاص". وما ذكر إشارة إلى تصفية العمل من العُجب بالفعل، فإن الالتفات إلى الإخلاص، والنظر إليه عجب، وهو من جملة الآفات، والخالص ما صفا عن جميع الآفات. وقال أيوب: " تخليص النيّات على العَمال أشد عليهم من جميع الأعمال". وقال بعضهم: "إخلاص ساعة نجاة الأبد، ولكن الإخلاص عزيز".

وقيل لسهل: أى شىء أشد على النفس؟ قال: "الإخلاص، إذ ليس لها فيه نصيب".

وقال الفُضَيْل: "ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص: أن يعافيك الله منهما"^(١).

فالنفس تحب الظهور، والمدح، والرئاسة، وزُيِّنَتْ لها الشهوات من النساء، والبنين، والقناطير المنظرة من الذهب، والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحراث.

وحتى يتيسر للعابد الإخلاص، وتختّم به أعماله؛ ينبغي عليه أن يقطع حب الدنيا من قلبه، وأن يملأه بحب الله ﷻ، فيكون المحرك له من داخله هو محبة الله ﷻ، وإرادة الدار الآخرة، فعند ذلك يتيسر عليه الإخلاص، وأما غيره، فباب الإخلاص عليه مسدود إلا في النادر، قال ابن عمر ﷺ: «لو علمت أن الله يقبل مني سجدة واحدة، وصدقة درهم؛ لم يكن غائب أحب إلي من الموت، أتدري ممن يتقبل الله، إنها يتقبل الله من المتقين»^(٢) ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة: ٢٧).

(١) تزكية النفوس (١ / ١٠)

(٢) صفة الصفة (١ / ١٣٠).

فالإخلاص من أشد الأشياء على النفس، وقال ﷺ: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ (الفرقان: ٢٣)، ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (البينة: ٥)، ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ (الزمر: ٣)، أي: لا يقبل الله ﷻ إلا الدين الخالص، وجاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ مَالَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ، فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا شَيْءَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتِغَى بِهِ وَجْهَهُ»^(١)، وقال أيضًا: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(٢).

أي: أن العمل مهما كان موافقًا للسنة فإنه لا يقبل إلا بالنية الصالحة، وشرط قبوله: «إنما الأعمال بالنيات» يخص الطاعات فبالنية الصالحة يمكن للعبد أن يتاجر مع الله ﷻ، فالنية الصالحة ترفع رتبة المباح؛ فتجعله من القربات والطاعات، ولكن لا تقوى النية الصالحة على أن تقلب البدعة سنة، أو تقلب المعصية طاعة، وهذا الشرط الأول من شرطي قبول العمل، وهو الإخلاص.

الشرط الثاني: متابعة سنة النبي ﷺ:

إذا أردت الإخلاص أيها المخلوق فعليك، أن تتبع الركن الثاني من الوحي الرباني ألا وهو سنة الرسول الكريم ﷺ فعن عائشة، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٣).

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب: الجهاد، باب: من غزا يلمس الأجر، رقم (٣١٤٠).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الوحي، باب: بدء الوحي، رقم (١).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

فكل عمل لا يندرج تحت الشريعة، ولا تكون شريعة النبي ﷺ حاكمة عليه بالصحة، فهو مردود على فاعله وغير مقبول:

فعن عبدالله ﷺ «إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهُدَى هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»^(١) وَعَنْ الْعَرَبَابِضِ بْنِ سَارِيَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»^(٢).

وقال ﷺ أيضًا عن عبد الله أن رسول الله ﷺ، قال: «اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفَيْتُمْ»^(٣)، عَنِ الرَّهْرِيِّ قَالَ: «كَانَ مَنْ مَضَى مِنْ عُلَمَائِنَا يَقُولُونَ: الْإِعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ نَجَاةٌ، وَالْعِلْمُ يُقْبَضُ قَبْضًا سَرِيعًا، فَنَعُشُ الْعِلْمَ ثَبَاتُ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا، وَفِي ذَهَابِ الْعِلْمِ ذَهَابُ ذَلِكَ كُلِّهِ»^(٤)؛ لَأَنَّ السُّنَّةَ مِثْلَ سَفِينَةِ نُوحٍ مِنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا هَلَكَ، وَقَالَ أَحَدُ الْعُلَمَاءِ: ادَّعَى أَنَا سَجْدَةَ اللَّهِ ﷻ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١). إِذَا سَلَكَ الْعَبْدُ طَرِيقَ الْعِبَادَةِ يَجِبُ أَنْ يُوَفَّقَ إِلَى صَاحِبِ سُنَّةٍ، يَحْمِلُهُ عَلَى سُنَّةِ النَّبِيِّ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ فِي طَرِيقِ تَعْبُدِهِ يَكُونُ فَارِغَ الْقَلْبِ لَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ يَكْشِفُ لَهُ حَقَائِقَ الْأُمُورِ، وَيُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَ الْبِدْعَةِ وَالسُّنَّةِ، فَإِذَا وَفَّقَ لِصَاحِبِ سُنَّةٍ حَمَلَهُ عَلَى السُّنَّةِ، وَقَدْ يُوَفَّقُ لغير ذلك، فَيَحْمِلُ عَلَى غير ذلك، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَمَتَمَكْنَا^(٥)

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب: صلاة العيدين، باب: كيف الخطبة، رقم (١٥٧٨).
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: العلم، باب: ما جاء في السنة واجتناب البدع، رقم (٢٦٧٦).

(٣) أخرجه الدارمي في سننه، المقدمة، باب: في كراهية أخذ الرأي، رقم (٢١١٠).

(٤) أخرجه الدارمي في سننه، المقدمة، باب: اتباع السنة، رقم (٩٧).

(٥) البيت لـ (مجنون بني عامر).

عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُقْبَلُ قَوْلٌ إِلَّا بِعَمَلٍ، وَلَا يُقْبَلُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ إِلَّا بِبَيِّنَةٍ، وَلَا يُقْبَلُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ إِلَّا بِإِصَابَةِ السُّنَّةِ»^(١).

وقال الحسن البصري: «سُنَّتُكُمْ وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ بَيْنَهُمَا بَيْنَ الْعَالِي وَالْجَافِي، فَاصْبِرُوا عَلَيْهَا رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَإِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ كَانُوا أَقْلَ النَّاسِ فِيمَا مَضَى، وَهُمْ أَقْلَ النَّاسِ فِيمَا بَقِيَ، الَّذِينَ لَمْ يَذْهَبُوا مَعَ أَهْلِ الْإِثْرَافِ فِي إِثْرَافِهِمْ، وَلَا مَعَ أَهْلِ الْبِدْعِ فِي بَدْعِهِمْ، وَصَبَرُوا عَلَى سُنَّتِهِمْ حَتَّى لَقُوا رَبَّهُمْ، فَكَذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَكُونُوا»^(٢). وقد بشر النبي ﷺ ببقاء طائفة ظاهرة على الحق ترفع راية السنة، وتقيم الحجة على سائر الخلق، فقال ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم؛ حتى يأتي أمر الله.. وهم كذلك فلا يأتي على أمة النبي ﷺ زمان تحرف فيه الكتب، ويضل الناس، ويضيع الحق في الأمة كما أتى على اليهود والنصارى، بل لا بد أن تبقى طائفة متمسكة بالسنة، ترفع رايته وتقيم الحجة على سائر أهل زمانها، حتى يأتي أمر الله تعالى، ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على الكتاب والسنة، وأن يوفقنا لما يرضى.

ثالثا: التوبة:

إن المهاجر إلى الله ﷻ لا بد له من بداية بعد أن أخلص نيته لله ﷻ وهو مؤمن. وهذه البداية هي التوبة والفرار إلى الله، وهذه الخطوة تلازم المهاجر أينما ذهب وهاجر.

إن التوبة هي الرجوع إلى الله تعالى، والتوبة واجبة على كل مسلم من ذنب صغيرا كان أو كبيرا، ودل على ذلك الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، وكذلك إجماع أهل العلم.

ويقول الحق جل وعلا: ﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَرْفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ وَأُنْيَبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٣﴾ (الزمر: ٥٤).

(١) الإبانة الكبرى لابن بطة (١ / ٣١٥).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (١ / ٢٤٤).

ويأمر الله ﷻ المؤمنين بالتوبة النصوح الخالصة، حتى ينجيهم الله تعالى من سوء أعمالهم، ويكفر عنهم سيئاتهم كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم مِّن جَنَّتِ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيِّنَ أَيْدِيهِمْ وَيَإْيَمَنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتَ لَنَا نُورٌ نَّآ وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ (التحریم: ٨).

ويقول الحق جل وعلا: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيَّةَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٣١)، ليس هذا فحسب، وإنما وردت أحاديث كثيرة تحت المؤمنين على التوبة: كما ورد عن أبي بردة، قَالَ: جَلَسْتُ إِلَى شَيْخٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ، فَحَدَّثَنِي فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَوْ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(١)، وفي رواية الإمام البخاري، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ؓ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(٢).

وهنا أمر يجب الوقوف عليه، لماذا يتوب الرسول ﷺ ويستغفر، وقد عُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر صلى الله على المعصوم نبينا محمد وسلم تسليماً كثيراً، ولقد أجاب الرسول ﷺ بأنه يريد أن يكون عبداً شكوراً، فعن المغيرة ؓ، يَقُولُ: «إِنَّ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَيَقُومُ لِيُصَلِّيَ حَتَّى تَرِمُ قَدَمَاهُ - أَوْ سَاقَاهُ - فَيَقَالُ لَهُ فَيَقُولُ: «أَقْلًا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»^(٣)، كما أن الله ﷻ يجب التوايين التائبين والمتطهرين.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، باب: حديث شيخ من أصحاب النبي ﷺ، رقم (٢٣٤٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الدعوات، باب: استغفار النبي ﷺ، رقم (٦٣٠٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجمعة، باب: قيام النبي ﷺ، رقم (١١٣٠).

وكثيراً ما أقف متفكراً متأملاً في رب الكون والسموات، الودود الكريم الذي يتودد إلى عباده، والذي يقول في الحديث القدسي عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: إِنِّي وَالْإِنْسُ وَالْجِنُّ فِي نَبَأٍ عَظِيمٍ، أَخْلُقُ وَيُعْبَدُ غَيْرِي وَأَرْزُقُ وَيُشْكِرُ غَيْرِي»^(١).

وهناك أيضاً أحاديث كثيرة ترقق القلوب إلى خالقها محبةً وذلةً واشتياقاً إلى غفران العزيز الوهاب.

فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظْلَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمَكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا صِرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى اتَّقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»^(٢).

إن الله ﷻ لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية، وبالرغم من ذلك من تاب إلى الله جل وعلا؛ تاب الله عليه، وفرح الله بتوبته، وعودته، ورجوعه، وهو

(١) أخرجه البيهقي في شعبه (٦ / ٢١٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، رقم الحديث (٢٥٧٧).

من قال في حديثه القدسي رضي الله عنه عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ «اللَّهُ أَشَدُّ قَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَسْتَيْقِظُ عَلَى بَعِيرِهِ أَضْلَهُ بِأَرْضِ فِلاةٍ» (١).

فهي أيها الحبيب بادر بالتوبة إلى خالقك، وقاضي حوائجك، يا من أسرفت على نفسك بالذنوب والمعاصي، ها هي أبواب التوبة مفتحة، يا من غرك طول الأمل، أبشر أن الله تعالى سيتوب عليك.

ولقد ورد من حديث أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَنْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» (٢).

إذن أيها العاصي لا تقنط من رحمة الله الكريم، فإن الله تعالى لا تضره معصيتك، ولا تنفعه طاعتك، إن الله هو الغني الكريم، فيدعوك ألا تقنط من رحمته، وأبشر بفرح الله تعالى بتوبتك.

وفي الحديث القدسي الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ فِيهَا يَرُوي عن رب العزة جل وعلا: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» (٣).

إن الله أرحم بك من نفسك التي بين جنبيك، فيا ترى هل ستعيش طويلاً أم تلاقى ربك قريباً، ولتعلم أنك موحد لله - جل وعلا - مهما بلغت ذنوبك وتبت إلى الله - جلا وعلا - تاب عليك.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب: الرقائق، باب: ذِكْرُ الإِخْبَارِ عَمَّا يُسْتَحَبُّ لِلْمَرْءِ مِنْ لُزُومِ التَّوْبَةِ فِي أَوْقَاتِهِ وَأَسْبَابِهِ، رقم الحديث ٦١٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب، رقم (٢٧٥٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى (ويحذرکم الله نفسه)، رقم (٧٤٠٥).

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٤٨) ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (النساء: ١١٦).

ولكن أخي الكريم ؛ لكي تتم توبتك يجب أن تمر بعدة خطوات، وإلا فأنت ما زلت على ظلمك لنفسك، وجهلك بالله تعالى، وهي :

١- أن تقلع عن الذنب والمعصية .

٢- الندم على فعل المعاصي والذنوب .

٣- أن ترد الحقوق إلى أصحابها؛ إذا كانت هناك مظالم.

إذن فإن التوبة من أهم الخطوات التي تذهب بك إلى الله ﷻ في سلام وأمان.

رابعاً: الصبر.

إن الحياة رحلة سفر؛ وإن السفر قطعة من العذاب، والإنسان المسافر يهيم نفسه لهذه المشاق، فعندما يخرج الإنسان من بيته إلى عمله؛ فإنه يعدُّ نفسه لذلك، أي: إن الإنسان يعد نفسه لما هو ذاهب إليه.

ولا بد للإنسان أن يكون صابراً على متاعب هذه الحياة، ولأجل هذا نقول: (من جاوز قناطر الفتن فإنه يصل إلى خزائن المن).

والإنسان إذا أراد أن يصل إلى رحمة الله تعالى وعطائه في الدنيا والآخرة، لا بد وأن يتلى ويختبر، ولا بد وأن يُمَحَّصَ الحديد الصلب، فلا يكون صلباً إلا إذا احترق؛ أي: وضع في درجة حرارة عالية؛ حتى يكون فولاذياً، وأنت لكي تكون فولاذي الإيوان صلباً؛ لا بد وأن تمر بعدة مراحل، وهي مراحل الإيوان كما قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكَاثَرُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿٥١﴾ وَمَا

كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أقدامَنَا
وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ (آل عمران: ١٤٦، ١٤٧)، أي: إن كثيراً
من الأنبياء السابقين قاتل معهم جموع كثيرة من أصحابهم، فما ضعفوا لما نزل
بهم من جروح، أو قتل؛ لأن ذلك في سبيل إعلاء كلمة ربهم، وما عجزوا
ولا خضعوا لعدوهم، إنما صبروا على ما أصابهم، والله يحب الصابرين، وما
كان قول هؤلاء الصابرين إلا أن قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وما وقع منا من
تجاوز في أمر ديننا، وثبت أقدامنا حتى لا نفر من قتال عدونا، وانصرنا على من
جحد بوحدانيتك ونبوة أنبيائك.

ما النتيجة؟

قال تعالى: ﴿ فَفَاتَنَّهُمُ اللَّهُ ثَوَابِ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ * وَاللَّهُ مُجِيبُ
الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٨)، فأعطى الله تعالى أولئك الصابرين جزاءهم في
الدنيا بالنصر على أعدائهم، وبالتمكين لهم في الأرض، وبالجزاء الحسن
العظيم في الآخرة، وهذا الجزاء هو جنات النعيم، والله يحب كل من أحسن
عبادته لربه، ومعاملته لخلقه.

أي: لا تُرْفَعُ في هذه الدنيا إلا إذا كنت صابراً على جميع الفتن التي تأتي
إليك: ﴿ فَفَاتَنَّهُمُ اللَّهُ ثَوَابِ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ * وَاللَّهُ مُجِيبُ الْمُحْسِنِينَ ﴾
(آل عمران: ١٤٨)، ولأجل هذا نقول: "من جاوز قناطر الفتن وصل إلى خزائن
المنن" أي: خزائن التوفيق والعطاء.

والنصر من الله تعالى لا يأتي لأمة ضعيفة أو مستكينة، وإنما لا بد أن
تعيش حالة من الثبات القلبي، وألا تكون منزعجاً أو مضطرباً على كل ما
سيجرى لك؛ لأن ما سيجري هو مرحلة إعداد لما هو أهم من هذا لأجل هذا
قال تعالى: ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾
(العنكبوت: ٢)، أي: أظن الناس إذ قالوا: آمنا، أن الله ﷻ يتركهم بلا ابتلاء
ولا اختبار؟

لأجل هذا فإن المسافر في رحلة الحياة يصبر نفسه على كل ما سيجري عليه في هذه الرحلة؛ لأنها رحلة سفر من تدبير الله ﷻ، وهو الذي يتولى أمرك، فلا بد وأن تكون منتظرًا للفرج فما عُدَّ الله تعالى بشيء أحب إليه من انتظار الفرج .

قال الله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

وقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٣).

وهذه أوامر من الله ﷻ؛ لأن نصبر ونكون مع الصابرين، ولهذا يجب علينا الوقوف على معنى الصبر ومراده حتى نصبر كما ينبغي، وفيما يرضى الله ﷻ، فالصبر لغة: الحبس، وشرعًا: حبس النفس عن ثلاثة أمور: الأول: معصية الله ، والثاني: عن محارم الله ، والثالث: السخط بأقدار الله ، وهذه الأنواع كما ذكرها أهل العلم.

فالأمر الأول: أن يصبر الإنسان على الطاعة؛ لأنها ثقيلة على النفس وثقيلة على البدن، مثل الصبر على المشقة المالية عند الزكاة والصدقة .. وغيرها.

أما الأمر الثاني: فيتعلق بترك المعاصي، والبعد عن انتهاك محارم الله؛ فيحبس الإنسان نفسه إلا عما يرضي الله ﷻ، ويحتاج ذلك إلى مجاهدة في ترك الهوى.

أما الأمر الثالث: فهو الصبر على البلاء، وإن كان أليماً شديداً فعلى المسلم ألا يسخط بقلبه أو بلسانه أو بجوارحه، وعليه أن يصبر ، كما عليه أن يرضي بأن يكون صابراً؛ كأن لم يصبه شيء، وعندما يمر بهذه المراحل يصل إلى مرحلة الشكر، وكان الرسول الكريم ﷺ إذا رأى ما يكره يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»^(١).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦ / ٧١) .

ومن المؤمنين رجال أفوا بهوهم مع الله تعالى، وصبروا على البأساء والضراء وحين البأس؛ فمنهم من وفي نذره؛ فاستشهد في سبيل الله، أو مات على الصدق والوفاء، ومنهم من ينتظر إحدى الحُسَيْنين: النصر أو الشهادة، وما غيروا عهد الله، ولا نقضوه، ولا بدلوه، كما يغير المنافقون عهودهم؛ أي: أن هناك صدقاً مع الله ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب: ٢٣) لأجل هذا، انظر إلى رسول الله ﷺ، وهو منتظر لفرج كبير من الله - جل في علاه - حتى يأتي الفرج والفتح بأمر الله تعالى وفضله، ويبشرنا بهذا فعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «سَتَفْتَحُ عَلَيْكُمْ أَرْضُونَ وَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ فَلَا يَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يُلْهَوْ بِأَسْهُمِهِ»^(١).

وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «سَتَفْتَحُ عَلَيْكُمْ الْأَمْصَارَ، وَسَتَكُونُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، تُقَطَعُ عَلَيْكُمْ فِيهَا بُعُوثٌ فَيَكْرَهُ الرَّجُلُ مِنْكُمْ الْبُعْثَ فِيهَا، فَيَتَخَلَّصُ مِنْ قَوْمِهِ، ثُمَّ يَتَصَفَّحُ الْقَبَائِلَ، يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَيْهِمْ، يَقُولُ: مَنْ أَكْفِيهِ بَعْثَ كَذَا، مَنْ أَكْفِيهِ بَعْثَ كَذَا؟ أَلَا وَذَلِكَ الْأَجِيرُ إِلَى آخِرِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ»^(٢).

وبفضل الله تعالى فِتَحَتْ جميع هذه البلدان التي بشر بفتحها المعصوم ﷺ. لقد كان رسول الله ﷺ يعيش مرحلة الانتظار والبلاء، بل وكان صلوات الله عليه وسلامه يشدد عليه في البلاء حتى في حالة مرضه.

إن الإنسان في هذه الحياة يصبر لأجل الله تعالى ويرضي لأجله ﷻ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (النحل: ١٢٧) أي: اصبر أيها الرسول الكريم على ما أصابك من أذى في سبيل الله حتى يأتيك الفرج، وما صبرك إلا بالله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، رقم الحديث ١٩١٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الجهاد، باب: في الجعائل في الغزو، رقم ٢٥٢٥.

العزیز، فهو الذي يعينك عليه ويثبتك، ولا تحزن على من خالفك ولم يستجب لدعوتك، ولا تغتم من مكرهم وكيدهم؛ فإن ذلك عائد عليهم بالشر والوبال.

لقد أراد الله تعالى للمؤمنين أن يصبروا حتى يكون جزاؤهم كل خير، وأن الملائكة تكون أول من تبشرهم بالجنة وبحسن الثواب حيث يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم ﴿ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَمِّ عُنُقِي الدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٤)، أي: تقول الملائكة لهم: سلمتم من كل سوء؛ بسبب صبركم على طاعة الله تعالى، فنعم العاقبة: الدار الجنة؛ لأجل ماذا؛ لأجل صبركم.

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

أي: قال موسى لقومه من بني إسرائيل: استعينوا بالله على فرعون وقومه، واصبروا على ما نالكم من فرعون من المكاره في أنفسكم وأبنائكم. فإن الأرض كلها لله تعالى يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة المحمودة لمن اتقى الله؛ فامثل لأوامره واجتنب نواهيه.

إن الأرض لله تعالى يورثها من يشاء من عباده، ولكنهم كانوا متعجلين، يريدون فوزاً سريعاً، وفرحاً قريباً كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٢٩). قال قوم موسى - من بني إسرائيل - لنبيهم موسى: ابتلينا، وأوذينا بذبح أبنائنا، واستحياء نساءنا على يد فرعون وقومه، من قبل أن تأتينا، ومن بعد ما جئتنا، قال موسى لهم: لعل ربكم يهلك عدوكم فرعون وقومه، ويستخلفكم في أرضهم بعد هلاكهم؛ فينظر كيف تعملون، هل تشكرون أم تكفرون؟

هؤلاء المستضعفين في انتظار الفرج، وبعد فترة وجيزة بعد أن كانوا مستضعفين في الأرض، ماذا حدث؟! قال تعالى: ﴿ وَأَوْزَنَّا آلَقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٧).

أي: وأورثنا بني إسرائيل الذين كانوا يستذلون للخدمة في مشارق الأرض ومغاربها، وهي: بلاد الشام التي باركنا فيها: بإخراج الزروع والثمار والأنهار، وتمت بالتمكين لهم في الأرض؛ بسبب صبرهم على أذى فرعون وقومه، بل ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه من العمارات والمزارع، وما كانوا يبنون من الأبنية والقصور... وغير ذلك.

وما تحولوا من هذه الحالة التي كانوا فيها ضعفاء ومغلوبين إلى حالة انتصار وارتفاع إلا بما صبروا، وما النتيجة؟ ﴿ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٧) لأجل هذا فإن بني إسرائيل عندما صبروا كما علمهم سيدنا موسى ﷺ ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ والنتيجة، في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْزَنَّا آلَقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٧).

إن خير المسافرين في رحلة الحياة هو الحبيب ﷺ وأمثلة صبره لا حصر لها، ونرى مثلاً لذلك عند مرضه ﷺ فإنه كان يتألم، ويشد عليه المرض، وكان مرضه ﷺ يعادل مرض رجلين، فعن الحارث بن سويد، عن عبد الله ﷺ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَرَضِهِ، وَهُوَ يُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: إِنَّكَ لَتُوَعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا، قُلْتُ: إِنْ ذَاكَ بَانَ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: «أَجَلٌ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذَى إِلَّا حَاتَّ اللَّهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ، كَمَا نَحَاتُ وَرَقُ الشَّجَرِ»^(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المرضى، باب: شدة المرض، رقم: ٥٦٤٧.

إن الإنسان في هذه الحياة يزداد عليه البلاء؛ لأجل ماذا؟ ليس لأن الله تعالى غاضب عليه، بل لأن الله تعالى يريد أن يُمَحِّصَهُ ويختبره، فالبلاء يشتد على هذه الأمة؛ لأن الله تعالى يريد أن يختبر هذه الأمة ويمحصها .

ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وأن الله تعالى هو الذي رتب هذا - وإنا لله وإنا إليه راجعون- كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَنَشِيرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٥، ١٥٦).

ولنختبركم بشيء يسير من الخوف ، ومن الجوع ، وبنقص من الأموال بتعسر الحصول عليها أو ذهابها ، ومن الأنفس : بالموت أو الشهادة في سبيل الله ، وبنقص من ثمرات النخيل والحبوب ، بقلّة نتاجها أو فسادها ، وبشر - أيها النبي الكريم- الصابرين على هذا، وأمثاله بما يُفرحهم ويسرُّهم من حسن العاقبة في الدنيا والآخرة. ومن صفة هؤلاء الصابرين أنهم إذا أصابهم شيء يكرهونه ، قالوا: إنا عبيد مملوكون لله ، مدبرون بأمره وتصريفه ، يفعل بنا ما يشاء ، وإنا إليه راجعون له بالموت، ثم بالبعث للحساب والجزاء .

إن الله ﷻ هو من يريد أن يرفع درجتك في جنات العلا ، فعن أبي موسى ، عن النبي ﷺ ، قال ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١).

إن المؤمن المسافر في هذه الرحلة الصعبة القصيرة في حاجة إلى السكينة فمن الذي يجعلك في حالة هدوء، وسكينة، وإيمان، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح: ٤)؛ أي: هو الذي أنزل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: التوبة ، باب: قبول التوبة من الذنوب ، رقم ٢٧٥٩ .

السكينة في قلوب المؤمنين؛ لكي يزدادوا إيماناً؛ لأن المؤمن يُواجه في هذه الحياة تعباً كبيراً من مجاهدة، ومن تربص المنافقين به والكفار وكيدهم لبلائه؛ ولذلك فإن ضعيف الإيمان يُستخف به؛ لأجل هذا، فأنت في حاجة إلى سكينة، أما الغافل فليس في حاجة إلى سكينة؛ لأن قلبه لا يوجد به مكان لاستقبال تلك السكينة؛ فالسكينة مثل الأرض، ومثل أن يسكن الماء في الأرض؛ أي: في مكان متعطش ومستعد لاستقبال هذا الماء، والسكينة تأتي من الله تعالى؛ فتسكن في قلبك، وتجعلك هادئاً غير مضطرب، وغير فرح، وغير متسرع .

وفي نهاية هذا المبحث "الصبر" هناك بعض العوامل التي تعينك على طاعة الله ﷻ وتجعلك من الصابرين، ومنها:

- ١- الدعاء بالصبر، وهو (سلاحك الذي لا يصدأ).
- ٢- البعد عن مواطن الفتن .
- ٣- الإغلاق على الحواس من جانب الفتن، وخاصة حواس "النظر والسمع، والشم واللمس" وهي الحواس التي لها طرق رئيسة إلى القلب .
- ٤- الزيادة في الطاعة، فإن الحسنه تولد الحسنه، والسيئه تولد السيئه والإيمان يزيد وينقص، فأتبع السيئه الحسنه تمحها حتى لا تذلل بمغاصيك إلى بئر الضياع والنسيان .
- ٥- مجاورة الصالحين، ومصاحبة الأتقياء .

ولنعلم أن الصبر مفتاح من مفاتيح الجنة وهو الطريق إلى تقوى الله عز وجل والهادي إليه وقد أمرنا به ، قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٣) ، وقال الله سبحانه تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٢).

خامساً : التقوى .

إن الإنسان إذا أراد أن يسافر إلى مكان ما، فإنه لا بد وأن يُجَهِّزَ ما يحتاجه من زادٍ ليستعين به على رحلته من طعام وشراب ، ومال وملبس ، ولهذا كان لا بد للمهاجر إلى الله ﷻ من زاد، وقد أرشدنا الله تعالى إلى أن التقوى هي زاد المهاجر إليه، وأن هذا الطريق لا يُعْرَفُ متى نهايته، ومن هنا فإن المهاجر إلى الله تعالى عليه أن يعمل لتحصيل هذا الزاد، وهو زاد التقوى، ولهذا كان موضوعنا حول كيفية بلوغ هذا الزاد، ودوره في نجاح الهجرة إلى الله تعالى .

إن التقوى واجبة لمن أراد مرضاة الله تعالى ورسوله ﷺ، وأعلن عداوته للشيطان وأعوانه، وهي غاية للأولياء مكتوبة، وعن المحرومين من ذوى الغفلة محجوبة، فهي النجاة والسعادة لمن أرادها كما أنها هي الشقاء والتعاسة لمن غفل عنها، وإنما السبيل الوحيد الذي يجب أن يُسَلَّكَ، والخطوة المهمة التي يجب أن تُحْطَى، ولهذا نعرض سؤالاً، وهو كيف نتقى الله ﷻ؟

إن الإجابة على هذا السؤال تتلخص في خمسة أسباب توصل إلى تقوى الله ﷻ.

١ - محبة الله ﷻ: لأن من يجب لا يخالف أوامر من يجب، وهذا ما يظهر بين الناس، فماذا لو كان من تحبه ليس كمثلته شيء؟! مثل قول الإمام الشافعي ﷻ:

تَعْصِي الإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا لَعْمَرِي فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لَمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ^(١)

هو الذي يدير شئونك، ويختار لك الخير، ويفيض عليك النعم والخيرات التي لا تحصى، ويتجاوز عن السيئات ويغفرها لك ، إذن فلا بد من المُحِبِّ أن

(١) (نضرة النعيم في مكارم الاخلاق) ، باب: من الآثار وأقوال العلماء ، من آثار الإمام الشافعي ﷻ.

يعرف من يجب، وما صفاته؟ فيجب عليك أن تعلم من هو الله - جل في علاه - كما قال تعالى: ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذَنْبِكَ ﴾ (محمد: ١٩) وكما قال النبي الكريم محمد ﷺ: «أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ»^(١) ومن أهم ما يجب أن يعلمه المهاجر أن الله تعالى يقضى شئون عباده جميعاً، وأنه غالب على أمره، ونحن نستجير به تعالى ونقول: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ أي: أستجير بالرب ذي القوة والجبروت، وأحتمى بربي؛ ليحمني ويجيرني، وهذا توحيد الربوبية .

كما أن الله تعالى هو الخالق وصاحب النعم كلها، فهو إله الكون الذي تُصَرَّفُ إليه العبادة من تقرب وصلاة وتوسل، ليس لأحد سواه وهذا توحيد الألوهية.

أما معرفة الله ﷻ ومعرفة أسمائه وصفاته فهذا هو التوحيد الذي يجب علينا أن نركز عليه، وأن نجعله يلازمنا في كل عمل نقوم به، فنعلم أنه سميع يسمعنا، وبصير يرى ويعلم حالنا، وهو الودود الذي يتودد إليك، وهو الغفور ذو الرحمة، وهو الرؤوف الرزاق، وهو الباسط الواسع، وبذلك فإن حبنا لله ﷻ يزداد، وأعرف الناس لله ﷻ أكثرهم حباً له، وأكثرهم خشية منه، ومن وسائل معرفة العبد بالله تعالى: أن يتدبر العبد نعم الله ﷻ عليه، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (النحل: ٥٣)، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ (إبراهيم: ٣٤) فمهما تدبر العبد نعم الله ﷻ عليه فإنه لا شك يزداد حباً لله ﷻ؛ لأن القلوب جُبلت على حب من أحسن إليها، وبُغض من أساء إليها. ومن ذلك: الخلوة بالله ﷻ وترجي عفوهِ؛ لنيل مرضاته كما جاء في حديث النبي ﷺ: « أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»^(٢).

(١) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، (١ / ١٥٧).
 (٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب: النداء للصلاة، باب: ما جاء في الدعاء، رقم ٧٢٤.

فالخلوة بالله ﷻ في هذا الوقت تزيد العبد حباً لله ﷻ ومراقبة له، ومن ذلك: قراءة القرآن الكريم مع التدبر في معانيه والتفكير في آياته، قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢).

وأيضاً من أسباب محبة الله ﷻ: التفكير في مخلوقاته ﷻ، وعظمة إبداعها وخلقها؛ لأن معرفة عظمة المخلوق تدل على عظمة الخالق ﷻ. ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (آل عمران: ١٩١).

وأيضاً تقديم ما يحب الله ﷻ على ما تحب النفس الإنسانية عند غلبة الهوى، ومن ذلك: أن يترك العبد كل سبب يحول بينه وبين محبة الله ﷻ، مثل: مجالسة أصحاب الهوى وأصحاب الملذات والشهوات... إلخ.

٢- استشعار العبد قرب الله ﷻ منه ومراقبته إياه: وهو أن يستشعر العبد قرب الله ﷻ منه ومراقبته لأقواله وأفعاله؛ امثالاً لقول الله تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق: ١٨)، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ (الحديد: ٤)، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِمْ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق: ١٦).

وقد مثل العلماء لذلك فقالوا: لو أن هناك ملكاً جباراً شديداً البطش، وهذا الملك أمامه بناته وحواريه، فهل يهم أحد بريئة تجاه بنات الملك، وحواريه، والملك ناظر إليه؟ يقول: لا. ولا شك أن الله ﷻ أعظم من هذا الملك، وأشد بطشاً، وأكثر غيرة من هذا الملك على حرماته ﷻ، وهو ﷻ العليم بما في الصدور، فينبغي للعبد أن يتقي محارم الله ﷻ.

٣- التدرب على مخالفة الهوى وطاعة الله ﷻ:

قال الإمام الشافعي رحمه الله:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ
عَقَلْنَا العُمَرَ وَاللَّهَ حَتَّى تَدَارَكْتَ عَلَيْنَا ذُنُوبٌ بَعْدَهُنَّ ذُنُوبٌ
فَيَا لَيْتَ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ مَا مَضَى وَيَأْذُنُ فِي تَوْبَاتِنَا فَتُوبٌ (١)

فيجب عليك أيها المهاجر أن تجاهد نفسك، وأن تعرفها جيدًا، وتعرف ما يجب أن يلازمها من الخوف والرجاء؛ لتصل بك إلى مرتبة المتقين الأبرار، ويجب أن تعلم أن الدنيا قصيرة الأمد، والأيام فيها قليلة، والساعات بها معدودة، فيها قف وابدأ، وحاول وجاهد، واستعن بالله تعالى على الشيطان وشركه.

٤- معرفة شؤم المعصية:

للمعصية ظلمة في الوجه، وسواد في القلب، وعذاب في الدنيا، وهلاك في الآخرة، كما أن المصائب سببها كثرة المعاصي والذنوب، فيقول الله جل في علاه ﴿ أَوْلَمَّا أَصَبْتُمْ مِصِيبَةً قَدِ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْ لَنْ نَحْمِلَ عَنْهَا فِيهَا فَاسِدًا يُفْتَنُ فِيهَا كَثِيرٌ مِّنْ نَّاسٍ غَلِيظُ الْعِقَابِ ﴾ (آل عمران: ١٦٥)، وقال أيضًا جل وعلا ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ ﴾ (النساء: ١٢٣) كذلك أيضًا، فإن هلاك الأمم السابقة كان من آثار ذنوبهم وتجاوزهم الحد، فكم من أمة جنت الحسرة والخيبة والشقاوة بعدما شاهدت العبادة والسيادة، فبالله عليك من أغرق قوم نوح حتى علا الماء رءوس الجبال؟ ومن أخرج الأبوين من الجنة؟ ومن طرد إبليس وبدل القرب بعدًا، ومن أهلك عادًا بالريح العقيم؟! ﴿ سَبَّحَ لَيْلًا وَنَهَارًا أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ كَأَنَّهم أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (الحاقة: ٧) ومن أرسل على ثمود الصيحة، فقطعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؟ ومن أرسل على قوم شعيب

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيثار (٩ / ٤١٧).

سحب العذاب، فلما صار السحاب فوق رؤوسهم أمطرهم نازًا تظلى؟ ومن حمل قرى اللوطية إلى السماء حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم، ثم قلبها عليهم عاليها سافلها، ثم أمطرهم حجارة من سجيل منضود ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (الذريات: ٣٤)، ولإخوانهم أمثالها ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٣) ومن أرسل على بني إسرائيل قوماً أولي بأس شديد، فقتلوا الرجال، وسبوا النساء والذرية، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِيُتَبَّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ (الإسراء: ٧) ومن أغرق فرعون وجنوده، وأرسل أرواحهم إلى النار؛ فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق، ومن أهلك القرون من بعد نوح ودمرها تدميرًا؟! كل ذلك بسبب الذنوب والمعاصي، فاعلم أيها المهاجر أن اللذة مهما طالت فهي قصيرة، وتبقى آثارها مسمومة، وتسوء عاقبتها، فتذكر قبل القدوم على المعصية أن لها جزاءً: وهو الجحيم والإغلال، والذل والهوان.

اللهم عافنا واعف عنا، وأجرنا من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا.

٥- معرفة مكاند الشيطان، ومصادده، والحذر من وساوسه:

يجب عليك أيها المهاجر أن تعرف عدوك الذي يريد عذابك، ويسعى إلى هلاكك، فيقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (فاطر: ٦) ولهذا فإنه يجب عليك الحذر؛ لأن الشيطان يلازمك: لا ينام عنك ولا يغفل عن حربك، ويعمل بجد ونشاط من أجل الإطاحة بك في النار، فعليك أن تستعين بالله ﷻ على الشيطان الرجيم، وأن تدفع خطراته، كما قال أحد العلماء: "دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة فدافعها، فإن لم تفعل صارت إرادة فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة فحاربها؛ فإن لم تفعل صارت فعلاً".

فالعبد ينبغي له أن يشغل نفسه دائماً بطاعة الله ﷻ حتى لا يكون محلاً للوساوس، كما قيل: "إذا غفل القلب ساعة عن ذكر الله جثم عليه الشيطان،

وأخذ يَعِدُهُ ويمنيه، فإن كان العبد مشغولاً بالطاعة والعبادة لا يكون عند ذلك محلاً للوساوس .

فينبغي أن يشغل العبد نفسه دائماً بطاعة الله تعالى، وأن يكون دائماً مع الله ﷻ، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣).

فإن حدث للعبد غفلة ووسوسة من الشيطان بمعصية؛ فينبغي له أن يتذكر الاستعاذة بالله العلي العظيم؛ فيحتمي بعظمة الله تعالى من الشيطان الرجيم، ثم ينبغي له أن يتحصن بالتحصينات الشرعية، مثل: قراءة آية الكرسي عند النوم، وقراءة آخر سورة البقرة. وكذلك المداومة على ذكر أذكار الصباح والمساء، ومن ذلك أيضاً أن يحافظ على وضوئه دائماً وأذكار الوضوء، وعليه أيضاً أن يترك فضول الكرم وفارغه، وفضول المخالطة، وبهذا تتحقق الخطوة الأولى في طريق هجرتك المباركة إلى الله ﷻ.

٦ - قصر الأمل :

إذا أراد المهاجر أن يُقَصِّرَ على نفسه طريق الهجرة، ويمضي سريعاً في طريقه؛ فيجب عليه أن يعلم أن طريقه سَيْمِلاً بالفتن والعوائق والشياطين، ولا بد أن يعلم أن طريقه إلى الآخرة قصير، وأن أيامه وساعاته معدودة، وأمله في البقاء ضعيف، وعليه أن يستعد لنهاية الطريق ومقابلة العزيز الوهاب بالمجاهدة والصبر.

نعم، أخي المهاجر الكريم، إنها لهجرة قصيرة، فيجب عليك أن تخطو هذه الخطوة المباركة سريعاً حتى لا ينالك قصر الأمل، وهو قرب الرحيل وحتى لا تكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ ذَرَهُمْ يَا كُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الحجر: ٣). أي: ذرهم لا يهتمون إلا بالطعام والشراب، ويلتهم طول الأمل، واستقامة الحال عن الاستعداد للآخرة، قال ﷻ: ﴿ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

﴿٥٧﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٨﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتُنِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٩﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٠﴾ (الزمر: ٥٥-٥٧) .

إن طول الأمل يجعلك تُسَوِّف العمل؛ أي تقول: سوف أفعل ، ويغدر بك الزمن ، ولا يتركك الأجل لتفعل ما كنت تنوي فعله بعد حين ؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ لابن عمر عن رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ » وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: «إِذَا أُمْسَيْتَ فَلَا تَتَنَطَّرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَتَنَطَّرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»^(١).

فقوله ﷺ : « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ » وقال في هذا الحسن رضي الله عنه «الْمُؤْمِنُ فِي الدُّنْيَا كَالْغَرِيبِ لَا يُنَافِسُ فِي عِزِّهَا، وَلَا يَجْرَعُ مِنْ ذُلِّهَا، لِلنَّاسِ حَالٌ وَلَهُ حَالٌ ، وَجَّهُوا هَذِهِ الْفُصُولَ حَيْثُ وَجَّهَهَا اللَّهُ»^(٢)؛ ويقول ابن القيم رحمه الله:

فَحَيَّ عَلَىٰ جَنَاتٍ عَدْنٍ فَإِنَّهَا مَنَازِلَكَ الْأُولَىٰ وَفِيهِمُ الْمُحْخِمِ
وَلَكِنَّا سَبِيُّ الْعَدُوِّ فَهَلْ تَرَى نَعُودُ إِلَىٰ أَوْطَانِنَا وَنَسَلَمُ
وَقَدْ رَعَمُوا أَنَّ الْغَرِيبَ إِذَا نَأَى وَشَطَّتْ بِهِ أَوْطَانُهُ فَهُوَ مُغْرَمٌ^(٣)

إن أهل الإيوان غرباء في الدنيا؛ ولكنهم أهل جنة، وهم ليسوا من أهل الدنيا أو ممن صارت الدنيا لديهم أكبر همهم ومبلغ علمهم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : الرقاق ، باب: قول النبي ﷺ كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، رقم (٦٤٦١) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه (١٨٩ / ٧) .

(٣) كشف الكربة في وصف أهل الغربة (١ / ٣٢٧) .

وقال النبي ﷺ: « مَا لِي وَلِلدُّنْيَا مَا أَنَا وَالِدُهَا إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاحِبٍ ظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا » (١).

عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْعَابِدِ، قَالَ: قَالَ فَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ لِرَجُلٍ: كَمْ أَتَتْ عَلَيْكَ قَالَ: سِتُّونَ سَنَةً، قَالَ: فَأَنْتَ مُنْذُ سِتِّينَ سَنَةً تَسِيرُ إِلَى رَبِّكَ تُوشِكُ أَنْ تَبْلُغَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا أَبَا عَلِيٍّ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، قَالَ لَهُ الْفُضَيْلُ: تَعْلَمُ مَا تَقُولُ؟ قَالَ الرَّجُلُ: قُلْتُ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. قَالَ الْفُضَيْلُ تَعْلَمُ مَا تَفْسِيرُهُ؟ قَالَ الرَّجُلُ: فَسَّرُهُ لَنَا يَا أَبَا عَلِيٍّ، قَالَ: قَوْلُكَ إِنَّا لِلَّهِ، تَقُولُ: أَنَا لِلَّهِ عَبْدٌ، وَأَنَا إِلَى اللَّهِ رَاجِعٌ، فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ عَبْدٌ لِلَّهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ رَاجِعٌ، فَلْيَعْلَمْ بِأَنَّهُ مَوْقُوفٌ، وَمَنْ عَلِمَ بِأَنَّهُ مَوْقُوفٌ فَلْيَعْلَمْ بِأَنَّهُ مَسْئُولٌ وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ مَسْئُولٌ فَلْيَعِدَّ لِلسُّؤَالِ جَوَابًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: فَمَا الْحِيلَةُ؟ قَالَ: يَسِيرَةٌ، قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: تُحْسِنُ فِيمَا بَقِيَ يُغْفَرُ لَكَ مَا مَضَى وَمَا بَقِيَ، فَإِنَّكَ إِنْ أَسَأْتَ فِيمَا بَقِيَ أَخَذَتْ بِهَا مَضَى وَمَا بَقِيَ (٢).

عن أبي عبد الله ، يَقُولُ: سَأَلَ رَجُلٌ فَضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَلِيٍّ مَتَى يَبْلُغُ الرَّجُلُ غَايَتَهُ مِنْ حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ لَهُ الْفُضَيْلُ: «إِذَا كَانَ عَطَاؤُهُ وَمَنْعُهُ إِيَّاكَ عِنْدَكَ سَوَاءً فَقَدْ بَلَغْتَ الْعَايَةَ مِنْ حُبِّهِ» (٣).

أسباب طول الأمل:

لطول الأمل أسباب، ويمكن تلخيصها في سببين رئيسين:

١- حب الدنيا: وهي أن يتمني المرء أن يعيش فترات طويلة؛ لينعم بنعيمها ويحاول الوصول إلى الشهرة والسلطان، فهو يكره الموت؛ لأنه لا يهيمه إلا أن يجهز ما يحتاجه في هذه المدة الطويلة من أموال وجاه؛ فيعمل

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله ابن مسعود، رقم ٣٧٠٩.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨ / ١١٣).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨ / ١١٣).

ما يوافق هواه وينسي ما قدمت يداه؛ ولأنه كذلك فهو يطمئن بالدنيا، ولا يريد الانقطاع عن الدنيا التي بذل من أجلها الكثير.

٢- الجهل: وهو أن يجهل المرء لماذا خُلِقَ، وأن كل يوم يمر به فإنه من عمره، وأن يجهل ويظن أن الموت لا يأتيه إلا في الشيخوخة.

علاج طول الأمل:

١- النظر إلى الآخرة والتفكر فيها: فعليك أخي الكريم أن تنظر بعين البصيرة؛ لترى الآخرة القريبة منك، والمنية المسرعة إليك، ولا بد من أن تعمل لتحصل على نجاتك من الحساب، وتحاول أن تسابق فيما فات عنك، يقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر: ١٨).

٢- ذكر هادم اللذات (الموت):

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَاتِ، فَمَا ذَكَرَهُ عَبْدٌ قَطُّ وَهُوَ فِي ضَيْقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ عَلَيْهِ، وَلَا ذَكَرَهُ وَهُوَ فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهُ عَلَيْهِ»^(١) وهو الموت الذي يزلزل العباد، ويزيل آمال المسوفين، ويقضي على شهوات العاصين.

قال الإمام الحسن البصري: "فَضَحَ الْمَوْتُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتْرِكْ لِذِي لُبٍّ فِيهَا مَرْحًا"^(٢). وانظروا إلى أحد الحكماء العظام الذي يقول: "ألا ترون أنكم تشيعون في كل يوم غاديًا راثحًا إلى الله تعالى قد قضى نحبه، وانقطع أمله؛ فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممدد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب وواجه الحساب".

ولهذا أقول لك أيها المهاجر الكريم "أدم على ذكر الله تعالى، وعلى ذكر الموت، وترك الدنيا، وشهوات النفس؛ حتى ينقطع ركونك إلى هذه الدنيا

(١) مسند الشهاب القضاعي (١ / ٣٩١).

(٢) إحياء علوم الدين (٤ / ٤٥١).

الزائفة الزائفة ، ويروى عن سيدنا عيسى عليه السلام ، (أنه قال حب الدنيا رأس كل خطيئة) ، وأنفع ما عالج به المؤمن في أمر دينه - قطع حب الدنيا من قلبه فإذا فعل ذلك ؛ هان عليه ترك الدنيا وسهل عليه طلب الآخرة ولا يقدر على قطعه إلا بأداته أما أني لا أقول أدواته الفقر وقلة الشيء وكثرة الصيام والصلاة والحج والجهاد ، ولكن أصل أدواته الفكر وقصر الأمل ومراجعة التوبة ، والطهارة وإخراج العز من القلب ، ولزوم التواضع وعمارة القلب بالتقوى وإدامة الحزن وكثرة الهم بما هو وارد عليه ^(١) .

ولا يعينه على الوصول إلى تلك المراتب العالية إلا الدعاء والتضرع إلى الله تعالى والإنابة إليه ، وهذا بابنا التالي .

سادساً : الدعاء .

عندما يصعب على الإنسان أمر ، ويشد عليه فإنه يتوجه إلى من يعينه عليه ومن يصبره ، ومن يقضي حاجاته ، وكذلك فإن طريق الهجرة طويل وتملؤه الصعوبات والشدائد والبلايا ، فيجب على السالك لهذا الطريق أن يستعين بمعين يعطيه القوة والعزيمة ...

كما أنك إذا أردت أن تسلك طريق الهجرة بسلام فعليك بالدعاء ؛ فإنه سلاح المؤمن فليس مع الدعاء هالك ، كما قال الله تعالى عن زكريا عليه السلام : ﴿ وَكَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ (مریم: ٤) وقال عن الخليل إبراهيم عليه السلام : ﴿ عَسَىٰ أَن أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ (مریم: ٤٨) .

إنها بشري لمن أراد النجاة والخلاص من العذاب الهوان ، والهم والحزن والضيق ، والعسر ، والبلاء ؛ لأن هذا الدعاء ليس مقتصرًا على الأنبياء فحسب ، وإنما هو لكل من كان عبدًا لله تعالى فقال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة: ١٨٦) .

(١) آداب النفوس للمحاسبى (١ / ١٣٦)

وقال الرسول الكريم ﷺ فيما رواه أبو سعيد الخدري وجماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ فَهُوَ مِنْ دَعْوَتِهِ عَلَى إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجَّلَ لَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِمَّا أَنْ تُدْخَرَ (يُؤَخَّرَ) فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يُدْفَعَ عَنْهُ مِنَ الْبَلَاءِ مِثْلَهَا»^(١).

وقال أيضا سيدنا رسول الله ﷺ من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(٢).

ولا تستكثر دعوتك إلى الله تعالى، فإنه ﷻ قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ (الحجر: ٢١) وقال ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (الإسراء: ٦٥).

وللدعاء آداب ومن أهمها:

١- التأدب والخشوع والمسكنة: فأما ما يدل على التأدب: حديث النبي الكريم ﷺ: فعن علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي، فَاعْفُرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»^(٣).

وأما ما يدل على الخشوع: ما رواه ابن أبي شيبة من قول مسلم بن يسار: "لَوْ كُنْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ لَسَرَّكَ أَنْ تُخْشَعَ لَهُ"^(٤).

وأما ما يدل على المسكنة: ما ورد عن النبي ﷺ في أحاديث الاستسقاء.

وهو أن يسأل الله تعالى بأسماائه الحسنی، ويدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠).

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الصغير (٢ / ١٩٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم: ٢٧٥٩.

(٣) أخرجه النسائي في سننه (٩٧٣).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٨ / ٣١٥).

٢ - ألا يدعو بإثم أو قطيعة رحم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ: «قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرِ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدْعُ الدُّعَاءَ»^(١).

٣ - إصابة أوقات الإجابة: وأفضل أوقات الإجابة هي:

أ - جوف الليل:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ؟ قَالَ: «جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرِ، وَدُبُرَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ»^(٢).

ب - نصف الليل الثاني وثلاثة الأخير:

فَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُؤَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ، يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ»^(٣).

وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»^(٤).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل ، فيقول دعوت فلم يستجب لي ، رقم (٢٧٣٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب: الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم : ٣٤٩٩ .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء، رقم ٧٥٧ .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب : الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب : ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم ٣٤٩٨ .

ج - ليلة الجمعة، ويوم الجمعة، وساعة الجمعة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ : قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ رضي الله عنه : « فِي الْجُمُعَةِ سَاعَةٌ ، لَا يُؤَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ قَائِمٌ يُصَلِّي ، فَسَأَلَ اللَّهَ خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ » وَقَالَ بِيَدِهِ ، وَوَضَعَ أُنْمُلَتَهُ عَلَى بَطْنِ الْوُسْطَى وَالْخَنْصِرِ ، قُلْنَا : يَزْهَدُهَا ^(١) .

د - بين الأذان والإقامة:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « الدُّعَاءُ لَا يَرُدُّ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ » ^(٢) .

هـ - عند تلاوة القرآن:

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ، أَنَّهُ مَرَّ عَلَى قَارِيٍّ يَقْرَأُ ، ثُمَّ سَأَلَ فَاسْتَرْجَعَ ، ثُمَّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : « مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلَيْسَ سَأَلَ اللَّهَ بِهِ ، فَإِنَّهُ سَيَجِيءُ أَقْوَامٌ يَقْرءُونَ الْقُرْآنَ يَسْأَلُونَ بِهِ النَّاسَ » ^(٣) .

و - يوم عرفة:

عَنْ عَمْرٍو بْنِ شُعَيْبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » ^(٤) .

ز - شهر رمضان :

لِقَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ ، وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب: الطلاق ، باب: الإشارة في الطلاق والأمور ، رقم ٥٢٩٤ .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب: الصلاة ، باب: ما جاء في أنَّ الدُّعَاءَ لَا يَرُدُّ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ ، رقم ٢١٢ .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب: فضائل القرآن ، باب: منه ، رقم ٢٩١٧ .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب: الدعوات عن رسول الله ، باب: في دعاء يوم عرفة ، رقم ٣٥٨٥ .

الله فَوْقَ الْغَمَامِ وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي
لَأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»^(١).

ح - في السجود:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ
رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»^(٢).

ط - عند صياح الديكة :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ
فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهْيَ الْحِمَارِ
فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّهُ رَأَى شَيْطَانًا»^(٣).

وللدعاء مع البلاء ثلاثة مقامات :

أولاً: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

ثانياً: أن يكون أضعف من البلاء، فيقوى عليه البلاء؛ فيصاب به العبد،
ولكن يخففه، وإن كان ضعيفاً.

ثالثاً: أن يتساوى الاثنان فيتقاوما ويمنع كل منهما صاحبه .

عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا يُغْنِي حَذْرٌ مِنْ
قَدْرِ، وَالدُّعَاءُ يَنْفَعُ بِمَا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزَلْ، وَإِنَّ الدُّعَاءَ وَالْبَلَاءَ لَيَعْتَلِجَانِ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٤).

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب: الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب: في العفو والعافية ،
رقم ٣٥٩٨ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب : الصلاة ، باب : ما يقال في الركوع والسجود ،
رقم ٤٨٢ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : بدء الخلق ، باب: خير مال المسلم غنم يتبع بها
شعف الجبال، رقم ٣٣٠٣ .

(٤) أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط (١ / ٣٣) .

ويجب على المسلم أن يتأدب في دعائه بأمرين :

١- الإلحاح في الدعاء: عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَعْجُزُوا فِي الدُّعَاءِ، فَإِنَّهُ لَنْ يَهْلِكَ مَعَ الدُّعَاءِ أَحَدٌ»^(١).

٢- عدم استعجال الدعاء: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»^(٢).

آداب الدعاء :

١ - تجنب الحرام مأكلا ومشربا.

٢- تقديم عمل صالح: ويدل على ذلك القصة الشهيرة عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة .

٣- الوضوء: يقول ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى اللَّهِ، أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُصَلِّ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بَرٍّ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، أَسْأَلُكَ أَلَّا تَدْعَ لِي ذَنْبًا إِلَّا غَفَرْتَهُ، وَلَا هَمًّا إِلَّا فَرَجْتَهُ، وَلَا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضًا إِلَّا قَضَيْتَهَا لِي، ثُمَّ يَسْأَلُ اللَّهَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا شَاءَ، فَإِنَّهُ يُقَدَّرُ»^(٣).

٤ - الشناء على الله تعالى: فعن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَعَارَى مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣ / ١٥٣) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : الدعوات ، باب : يستجاب للعبد ما لم يعجل ، رقم ٦٣٤٠ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه (١ / ٤٤١) .

والله أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتَجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ»^(١).

كما أخرج الطبراني عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ دَعَا بِهِذِهِ الْكَلِمَاتِ الْحَمْسِ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(٢).

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ يَقُولُ: يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، قَالَ: «قَدْ اسْتَجِيبَ لَكَ فَسَلْ»^(٣)، وفي الحديث دليل على أن استفتاح الدعاء بقول: «يا ذا الجلال والإكرام» سبب في الإجابة بفضل الله تعالى.

فاحرص أيها المهاجر على سلاحك (الدعاء) والصلاة والسلام على أفضل من دعا إلى خالقه وعلى آله وصحبه وسلم.

سابعاً : التوكل على الله تعالى والثقة به :

إن المهاجر إلى الله تعالى لا بد له من معين في هجرته ، ويجب أن يعلم أن الموفق من وفقه الله تعالى ، وأن الخاسر هو من اعتمد على نفسه واعتز بنفسه؛ فتهلكه نفسه؛ ولذلك لا بد للإنسان من مقام التوكل على الله ﷻ، والتوكل ليس كلمة يرددها الإنسان بلسانه، بل التوكل هو نهاية تحقيق التوحيد، فهو صدق اعتماد القلب على الله تعالى مع الأخذ بالأسباب .

إن الثقة بالله تعالى أعلى من التوكل عليه ؛ ولذلك فإننا نبدأ خطوة التوكل أولاً ؛ استجابة لأمره تعالى، قال تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : الجمعة ، باب: فضل من تعار من الليل فصلی ، رقم ١١٥٤ .

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط (٨ / ٢٧٩) .

(٣) أخرجه أحمد في سننه ، تمة مسند الأنصار ، باب: حديث معاذ بن جبل ، رقم الحديث : ٢٢٠١٧ .

(المائدة : ٢٣) وأمر به رسوله وحبيبه ﷺ ، قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٣).

إن التوكل على الله أساس العبادة؛ ولذلك فإن أعلى الناس توكلًا على الله أكثرهم حبًا له ﷻ؛ لأن معرفة الله ﷻ بأنه هو المجير، وهو الرحيم، وهو الهادي القوي العليم، لو اعتقدها كل إنسان حق اعتقادها لكانوا متوكلين .
والتوكل هو الاستسلام لله تعالى، وتفويض الأمر إليه اعتمادًا ووثوقًا به؛ وذلك لقدرته ﷻ والاعتماد عليه لعلمه وقدرته .

كما قال الله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ (الفرقان: ٥٨)
ثم تأتي الثقة بالله تعالى لترتفع بالمؤمنين إلى مراتب التسليم الكامل، والذي نراه في حياة الأنبياء والمرسلين والصدّيقين ، وهي الثقة التي ملأت قلب أم موسى عليهما السلام ، وهي تلقي ولدها في البحر استجابةً لأمر الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (القصص: ٧)
فالثقة بالله تعالى جعلتها تسارع لتلقي ولدها في اليم، فكان جزاؤها أن حفظه الله تعالى لها، وألقى ﷻ محبته في قلب امرأة فرعون، فحين نظرت إليه امرأة فرعون قالت: ﴿ قَرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ (القصص: ٩) إنها ثقة التوكل على الله تعالى ، وأكثر من ذلك بأن حرم الله تعالى عليه المراضع؛ لترضعه أمه ويرد إليها مرة أخرى، وبذلك كانت نتيجة التوكل على الله تعالى أن تجلس أم موسى عليهما السلام في قصر فرعون، وتربي ولدها في كنف ورعاية فرعون نفسه وبأمره وهو من كان يُحشى منه ومن بطشه.

إنها ثقة الحبّ في الله تعالى وثقة المعرفة به، والتي ألقاها الله تعالى في قلب إبراهيم ﷺ حين ألقى في النار، وأنزل له القوي المتين جبريل ﷺ وهو يقول ألك حاجة؟ فيرد إبراهيم ﷺ بثقة في الله تعالى: «حسبي الله ونعم الوكيل» وهي الثقة التي ملأت قلبه ﷺ حين أخذ السكين، وأخذ ولده

ليذبحه: ﴿ قَالَ يَبْنِيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾
فيرد إسماعيل بثقة أيضا: ﴿ قَالَ يَتَأَبَّتْ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ
مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الصفات: ١٠٢).

اللهم ارزقنا توكلًا عليك بثقة الأنبياء والمرسلين حيث تقضي به حاجتنا
يارب العالمين ، اللهم استجب لنا واجعلنا من الأبرار ، ولا تهلكننا بسوء ظننا
بك يا أرحم الراحمين.